

# أزمة أوروبا الدينية

## في العصر الحاضر

بقلم محمد جلال

بخیل الینا - کایری الکنیرون - أن التصوف هو أذ حالات النفس وأقدرها على محاسبة الضمير وكشف حقيقة قال ابن خلدون : « وأصله - أي التصوف - ... طريقة إلهي والهداية <sup>(١)</sup> » وقال أيضا : « ويتم (بالمجاهدة) وجود النفس لها من ذاتها وهو عين الإدراك <sup>(٢)</sup> » وقال الأستاذ لاند :  
« Le mysticisme est : ... croyance à la possibilité d'une union intime et directe de l'esprit humain en principe fondamental de l'être <sup>(٣)</sup> »

أي أن التصوف هو اعتقاد في إمكان حصول اتحاد تام مابين الروح وحقيقة الانسان . وقال الفيلسوف برجرسون :  
« Le grand mystique serait une individualité qui franchirait les limites assignées à l'espèce par sa matérialité, qui continuerait et prolongerait ainsi l'action divine <sup>(٤)</sup> »

ومنه أن الصوفي الحقيقي هو الذي يتخطى حجاب الحس الذ ومضته الطبيعية البشرية ليواصل بذلك العمل الآلهي

يتضح من ذلك أن التصوف يحقق شرطى الدين وهما الاعتقاد والعمل . فتلاحظ إذا أن معظم المتصوفة قد نشأوا في بيئة دينية إلا القليل منهم من ظل يعمل بمعبدائه في الظاهر . ولما كان للروح العملية اتجاه مختلف عن الاتجاه الديني في كثير من أغراضه وميوله ، مال العلماء إلى التخلي عن الدين ورميه بالنقص لهذا سنقتصر بحثنا الآن على حقيقة الايمان مع اتصاله بالعلم والفلسفة والتاريخ

أن يستعينوا بالثقافة العامة التي يتلقونها في المدرسة ، ولا يعرفون كيف يستفيدون من علم الفريزة (الفلسفة) أو علم النفس أو التاريخ في بحوثهم الأدبية ولا يعرفون شيئاً من مناهج النقد ، وقواعد التحليل الأدبي ، لأن الطلاب كسالى أو بلداء ، فالطلاب يدرسون الأدب الفرنسي فيسبغونه ، ويدرسون الرياضة فيفهمونها ، ويدرسون أشياء كثيرة غير هذه يضيقون ببعضها ويتبرمون به ، ويقبلون على بعضها ويحبونها ، ويجدون لذلك كله أثراً في نفوسهم ، فإذا جاء الأدب العربي وجدت أكثر الطلاب لم يلدوه ولم يبق في نفوسهم أثراً

وسبب ذلك أن أكثر المدرسين عاجزون عن أداء هذه المهمة التي انتدبوا أنفسهم لها ، أو انتدبهم لها من يدهم مقاليد الأمور ، لشهرتهم الأدبية أو لشهادتهم العالية ، أو لشيء غير ذلك له صلة ضئيلة ، أو لا صلة له بالأدب قط . وأكثر المدرسين اليوم بين رجلين : رجل نقى الأدب العربي القديم ثقافة حسنة ، وضرب بالسهم الوافر في علوم العربية نحوها وصرفها ، وبلاغتها وعروضها ، ونقدها وروايتها ، وحفظ أيام العرب وأمثالهم واستطاع أن يفهمها حتى فهمها ، وينقدها نقد بصير بها ، ولكنه عجز عن أن يدرسها ويدرس رجالها دراسة تحليلية صحيحة لجهله الآداب الأجنبية ، وجهله قواعد النقد الحديث

ورجل درس الآداب الأجنبية أو واحداً منها دراسة عميقة ، وعرف مناهج البحث ، ومذاهب النقد ، وأحسن نقلها إلى الأدب العربي ، ولكنه عجز عن فهم الشعر العربي ، وجهل علوم العربية ، ففد لا يستطيع إدراك معنى النص العربي فضلاً عن نقده أو الحكم عليه

نعم إن أكثر المدرسين من غير رجال الأدب ؛ وإن فهم من لم يعرفه الناس شاعراً مطبوعاً ، ولا كاتباً مجيداً ، ولا ناقداً بصيراً ، ولا أكثر من ذلك ولا أقل . فكيف لعمري نطلب منه غرس الملكة الأدبية في نفوس الطلاب ؟ إن مثل هذا الطالب هدم للمنطق الذي يقرر أن فاقد الشيء لا يعطيه

\*\*\*

هذه قيمة الحياة الأدبية في الشام ؛ وهذا موطن الضعف فيها ؛ فلا صلاح لها إلا بتقويتها ، ولا نجاح لأمة لا تسخر أدبها لخدمة قضيتها . فهل يبدأ في حياتنا الأدبية « عهد الإصلاح » المنتظر ؟

على الطنطاوي

(١) مقدمة ابن خلدون — طبعة القاهرة ص ٤٠٨

(٢) مقدمة ص ٤١٠

(٣) J. G. Lande : Vocabulaire de la philosophie-P. 496. Paris 1932

(٤) Bergson : Les deux Sources de la morale etc ... — P. 215. Paris 1912

— العلم :

أحدث تقدم العلم في القرن التاسع عشر اضطراباً في الحياة  
—بنية أفضى الى تمحيص الدين على ضوء القوانين العلمية . من  
ك لو حظ أن نظرية خلق العالم في سبعة أيام — كما هو وارد في  
نظم الكتب المقدسة — لم تتفق وقوانين العلم الكوني .  
ن اليهودية والمسيحية والاسلام ومعظم الأديان الأخرى  
نأت كلها في الشرق لمن المحتمل إذا أنها تكاد تتحد في فكرة  
لمية واحدة . في فلسطين مثلاً ساد الاعتقاد قديماً أن الأرض  
باطة بطبقة صلبة معلقة فيها الكواكب يعلوها عرش الله الذي  
بت الأرض وما عليها وهو منفصل عنها ؛ ولكن علم الفلك  
بت أن العالم لا نهاية له ، فيكون عرش الله واقفاً في حيز العالم  
يمرى عليه سنة هذا الوجود من حركة وسكون . أدى هذا  
الحلاف الى رأيين : الأول اتحاد العلم والدين ، والثاني انفصالهما  
أما الرأي الأول فانه يقرر — على رغم ظواهر الأشياء وما في  
لكتب المقدسة من اختلاف — أن هناك صلة بين العلم والدين  
سهل تحديدها إذا اتفق العلم والدين على معاني الكلمات ؛ ففي  
مثال السابق مثلاً جاء في التوراة أن معنى كلمة يوم : مدة مقدارها  
نصر لا أربعا وعشرين ساعة كما نعتقد نحن اليوم ؛ على هذا  
لاعتبار تكون الأرض قد تم تكوينها في ستة عصور —  
وهذا هو رأى علماء الجيولوجيا

ويقول الرأي الثاني إن للعلم والدين أسباباً ودواهي خاصة  
بكل منهما ، وقد يتفاوت محيط أحدهما بالنسبة لمحيط الآخر دون  
أن يتعارضا في شيء . ففتضى الدين اعتقاد وأمر ثم عمل ؛  
وأما مقتضى العلم فكشف قوانين هذا الوجود — بما في ذلك  
الانسان — وتحقيقها بالطرق التجريبية . وليس من العلم في شيء  
أن تحمل الجماعة على اتباع هذا النظام أو التخلي عن هذا المرف .  
يستوى عنده البار والفاجر ؛ وبمكس ذلك الدين ، فانه حسب وعاطفة  
ومفاضلة بين بار وفاجر ؛ فهو لذلك ضرورة للنظام الاجتماعي ،  
وهذا رأى برجسون في كتابه المشار إليه آنفاً

أفي ذلك طمأنينة للنفس ؟ قد يكون ذلك . . ولكن ظاهراً  
الشيء غير حقيقته ؛ إذ النفس لا تعرف السكون الذي يُزَيَّن لها  
التخير بين طريق وطريق ؛ فهي إن خضعت للدين بالأمس

فذلك من طبيعتها ، وإذا خضعت للعلم اليوم فذلك أيضاً من  
طبيعتها . وقد لا تخضع غداً لهذا ولا لذلك ، وعليه فإن هذا  
النقسم لم يحقق مأرباً

٢ — الفلسفة :

أما في الفلسفة فالنزاع قائم بين أنصار مذهب الفكر<sup>(١)</sup>  
Intellectualisme وبين أنصار مذهب العمل<sup>(٢)</sup> Pragmatisme .  
يقرر الفكريون أن الذكاء هو خير وسيلة لفهم الحقيقة الواقعة ،  
وفي رأى المعلمين أنه وسيلة لتكوين صور لأعمالنا نستعين بها  
على فهم الأشياء

فعمد الفكرين (أى معظم فلاسفة الغرب والفرنسيين  
منهم خصوصاً بتقديم ديكارت) تتمين الحقيقة بنفسها ؛ وليس  
في استطاع الفرد — مهما كانت قدرته — أن يحددها دفعة واحدة ،  
ولكننا تقرب منها شيئاً فشيئاً مع وفرة مجهودنا الفكري  
خلال المصور المتطاولة . كان العلم عند اليونان مثلاً مبادئ  
وأوليات ، وقد ترقى بعض الشيء عند العرب ؛ وفي عصر  
 النهضة بأوروبا ، وما زال يرتقى ويستخلص أسسه من شوائب  
كانت سبباً في تغيير معالم الحقيقة التي لم تغير جوهرها بالنسبة  
لحاجة الانسان

ويرى آخرون أن ليس للحقيقة وجود ذاتي ، فهي محض  
فكرة دعت اليها حاجة الانسان . فعند اليونان تدل كلمة حقيقة  
على شيء نسبي — أى أن حاجة الانسان الفكرية تتطلب حقائق  
مختلفة حسب الزمان والمكان ، وهي بدورها تحقق رغبة علمية  
واحدة ؛ وبما أن حاجة الانسان غير ثابتة فتكون تلك الحقيقة  
أيضاً غير ثابتة ، وذلك لاختلاف وسائل تحقيقها . فطريقة  
الحداد مثلاً كانت حقيقة في الماضي — كذلك مطرقة النجار  
هي حقيقة اليوم ، ورغم ما أثبتته العلم والعمل حتى عهد قريب  
من صحة نظرية نيوتن الخاصة بتجاذب الأجسام ، فإن أبحاث  
اينشتاين تثبت حقيقة أخرى بعدما هدمت الأولى ؛ أعني أن  
هناك تناسباً خاصاً في الحياة الفكرية لكل عصر ؛ ولا غشاضة

(١) مقابلة لكلمة روجين « Spiritualistes » كما جاء في مقدمة

ابن خلدون — ص ٣٥٣

(٢) استعماله مؤقثاً إذ لم نثر بعد على اصطلاحه في المراجع العربية

من جديد يدرسون الإنجيل من حيث التاريخ والجغرافيا والتشريع  
وقد قضى الأب لوازى Loisy حياته في التوفيق بين الدين وال  
نشأ عن تلك الحركة اتجاه جديد في الرأي سمي بـ «الاعتقادي»  
Symbolofidisme يرى أخذ الأشياء على أنها  
بسيطة شأنها أن تحدث معتقدات تتناسب مع قوة إيمان ال  
فيكون مرمى نظرية زول المسيح تحديد قيمة مثلي  
على رغم كل ذلك ما زال في النفس بقية تدعوها إلى آ  
معتقد جديد وحقيقة أخرى ، فيرى برجسون وهنري بوان  
H. Poincaré أن العقل غير كاف وحده لكشف الحقيقة التي  
وراءها الانسان منذ نشأته . فلا بد له أن يلجأ إلى  
كما فعل أفلاطون وغيره

ويرى أوجست كينت وأتباعه أن الدين نظام اجتماعي  
للتطور مثل الجماعة في تاريخها من تشريع وأخلاق . و  
الأستاذ شارل مورا Charles Maurras ضرورة الدين الكائن  
لاصلاح النظم الاجتماعية في فرنسا لما فيه من عناصر السلام  
ماهي حالة الفرد النفسية إزاء ذلك الانقسام ؟

\*\*\*

عبر علماء النفس عن ذلك بأنه شعور جديد بشخصية ا  
يدعوه إلى تجديد لها من حيث اتصاله بالجماعة ، ومن حيث ات  
بنفسه ، مما أدى إلى ترك بعض المعتقدات والتمسك بأخرى  
ولما كانت الجماعة تحمل في ماضيها عناصر مدينيات مختلفة فعم  
الدافع إلى هذا الشعور في الفرد . ويختلف الأفراد في ق  
ذلك حسب استمدادهم النفسي ، وهذا ما نشاهد في القد  
بولس إذ اضطربت نفسه متأثراً بمصره ، فخرج على الدين ثم  
اليه متحمساً لتجديده ، وذلك بالدرس والمجاهدة النفسية

يرى بعض رجال الدين أن مثل هذا النوع من المجا  
محاولة من العبد أن يتصل بالله ليظفر بالنعمة . ولكن به  
أتباع لوتر ليسوا في حاجة إلى ذلك ، إذ الغفران في رأيهم .  
للجميع ، ونفثهم بالله عظيمة لتوزيع هذا الغفران ، فلم ي  
عندهم إذاً هذا النوع من المجاهدة

وهناك فريق آخر يقال لهم الوصوليون Methodistes وظا  
فعل الخير لأنهم مجبرون عليه ، وهذا عمل خلو من الش

إذا أقبلنا بجميع جهودنا على تلك الحقيقة المتغيرة فهي لم تتحدد  
بغير منقبتها

مثل ولبيم جيمس<sup>(١)</sup> هذا الرأي في أميركا - وأخذ برجسون  
ببعض منه ، أي الجزء الخاص بتطور الفكر<sup>(٢)</sup> ، وتبع المسيو  
ادوار لرر أستاذه برجسون في ذلك إذ رأى أنه يصعب على  
الرجل العمل فهم الدين من الوجهة المنطقية . وعليه فإن عبارة  
«الأب والابن وروح القدس» معناها تصوير حقيقة واحدة  
تنشأ عن ارتباط الفرد بغيره . ويقال مثل ذلك في تفسير  
وجود عبادة الله وحده - أي كونه مانلاً حقيقة روحاً ودماً  
(عقيدة سر القربان عند المسيحيين) ؛ ويراها آخرون أنها  
سيفرة أمر ، أي وجوب تصور حالة العبد أمام ربه كما يجب  
أن يكون عليها أمام انسان يرى فيه أصل الحب والتقديس .  
هو أصل اليقين والشعور الطاهر ، وقال بمثل ذلك الأب  
سرتلانج Sertillanges الأستاذ بالمعهد الكاثوليكي بفرنسا في إحدى  
جلسات مجمع باريس الديني الأخير إذ رأى أن أوضاع الدين  
لم تكن غير نواميس للحياة

٣ - التاريخ

شك علماء التاريخ في مصادر التوراة ، لأن فيها أجزاء وضعت  
قديسون ، وقد نُفِثت من بعدهم . ولأن لم يستقر الأمر على  
معرفة كيفية حصول ذلك لعدم توفر الوثائق التاريخية الكافية ؛  
فلا يبعد إذن أن يكون قد وقع فيها بعض التغيير أو الحذف .  
مثال ذلك أسفار موسى الخمسة فإنه لم يزل أمرها غامضاً حتى اليوم .  
يوجد عدا هذا بعض تناقض في الآيات من حيث الصورة والمبنى .  
آمن<sup>(٣)</sup> عيسى عليه السلام في عودته ثانية إلى الأرض ، وإن  
الساعة آتية قبل أن ينقضي العهد الذي نزل هو فيه

يلاحظ هنا تبان نشأ عمارهز اليه في التوراة من أعمال  
دنيوية ، إذ انقضى عهده وانتفى النظام الوراثةي للملك وهو لم يعد  
بعد . أدى هذا الاعتراض إلى احداث انشقاق في الكنيسة  
الكاثوليكية في أواخر القرن التاسع عشر . أخذ رجال الكنيسة

(١) William James : La Philosophie de l'expérience. Tr. fr. 1910

(٢) H. Bergson : L'Évolution Créatrice. Ch. 3. Paris 1928

(٣) ٣ - أنظر العهد الجديد - أعمال القديسين - اصحاح ١